وصفي زكريا

حياته ومؤلفاته

كثيرون منا عرفوا أو سمعوا أو قرؤوا شيئاً مما ألفه المهندس الزراعي وصفي زكريا، العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق، ومن قرأ له يدرك مباشرة أنه كاتب موسوعي مدقق وبحاثة متتبع دؤوب، وعلى الرغم من شهرته الأدبية والعلمية والزراعية في سورية وفي أرجاء العالم العربي، وعلى الرغم من جهوده الوطنية وخبرته العلمية، التي قدمها لكل من سورية ولبنان وفلسطين والعراق والأردن واليمن، وعلى الرغم من أنه شهيد القلم، فقد توفي في ٢١ نيسان ١٩٦٤ في منزله في دمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط "حيوانات وطيور بلاد الشام" (الذي طبع سنة ١٩٨٣). فهو لم ينل ما يستحقه من تقدير وفقط هذه الأيام وبعد مراجعات استمرت أكثر من ثلاثين سنة سمي باسمه شارع في العاصمة السورية (دمشق).

◆◆◆

عاش وصفي زكريا إذن خمسة وسبعين عاماً، أمضاها في الدرس والتنقيب، وفي البحث في مجموعة كبيرة من المراجع والكتب التاريخية والزراعية، فترك خلفه مكتبة ضمت ما يزيد على مائة موسوعة ومئات الكتب العلمية التي تتناول الزراعة والآثار والتاريخ، حتى أنه في خواتيم حياته، وكانت تقدمت به السن، كان يُشاهد وهو يستحث الخطى متكئاً على عصاه متنقلاً من تل إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى، باحثاً منقباً عن "نهر مرا" (المرأة)، الذي ذكره الرحالة والشعراء، والذي بقيت آثاره مجهولة حتى قام، طيب الله ثراه، بالكشف عن بعض مواقعه وتحديدها. وليعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة "الحوليات الأثرية" التي كان يغذي صفحاتها بأبحاثه واكتشافاته ونظرياته وشروحاته التاريخية والأثرية التي كان لها الفضل العميم في تغيير العديد من آراء الأثريين والمؤرخين الباحثين في تاريخ بلاد الشام.

ولد المهندس العلامة وصفي زكريا عام ١٨٨٩ في طرابلس (الشام) في كنف عائلة تعود أصولها إلى عشيرة "الشبصغ" الشركسية.

والده زكريا وصفي شركس، الذي حمله والده وصفي (الكبير) وهو صغير من مدينة "باكو" عاصمة أذربيجان الحالية، إلى اسطنبول عاصمة السلطنة العثمانية، بعدما مني الشراكسة عام ١٨٥٩ بهزيمة في حربهم ضد الجيش الروسي في أواسط القرن التاسع عشر، وهم يحاولون المحافظة على الاستقلال من أطماع القياصرة الروس الهادفة إلى ضم بلادهم إلى إمبراطوريتهم الواسعة.

في اسطمبول انتمى زكريا وصفي شركس إلى الكلية العسكرية في سبعينيات القرن التاسع عشر وتخرج ضابطاً، أولى مهماته العسكرية كانت في طرابلس (الشام) حيث تزوج الضابط الشاب من السيدة حسناء سمينة شقيقة إبراهيم سمينة الذي كان رجل أعمال فرزق منها عام ١٨٨٥ بابنة سمياها زهراء، ثم بابنين هما وصفي عام ١٨٨٩ وحقي عام ١٨٩١.

بعد ولادة ابنه حقي نقل العقيد زكريا شركس من طرابلس (الشام) إلى موقع عسكري في مدينة (تل كلخ): وبقي فيه حتى عام ١٩٠٣، حيث أمر بقيادة حملة من ثلاثة آلاف جندي إلى اليمن، الذي كان قد ثار على حكم العثمانيين. لكن الثوار اليمنيين طوقوه وجنده في جبال عسير وأبادوهم، فانتقلت حسناء مع أولادها إلى دمشق حيث انصرفت إلى تربيتهم وتعويض حنان الأب ورعايته.

◆ ◆ ◆

في دمشق أتم وصفي زكريا دراسته الابتدائية والثانوية، لينتقل عام ١٩٠٦ إلى اسطمبول ويلتحق بالمدرسة الزراعية العليا، ويتخرج منها عام ١٩١٢ مهندساً زراعياً.

بعد تخرجه عُين في "السلمية" حيث درس في مدرستها الزراعية، التي كانت أنشئت حديثاً، ثم أصبح مديراً لها.

سنة ١٩١٤ شغل منصباً في مديرية "دار الحرير" في بيروت. لينتقل بعدها أستاذاً محاضراً في مدرسة "اللطرون" (بين القدس ويافا). وهناك استدعي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية برتبة ملازم أول في الجيش العثماني، الذي كان يحتل البلاد ويخوض حرباً ضد الجيش البريطاني على جبهتي سيناء والنقب، لكنه بعدما أمضى حوالي العامين متنقلاً بين غزة وبئر السبع، انتقاه الجنرال جمال باشا من بين

عديدين من المثقفين ليعيدهم إلى الحياة المدنية لتستفيد الدولة العثمانية من ثقافتهم في الميدان المدني.

في سنة ١٩١٦ كلف بمهمة مكافحة الجراد الذي اجتاح "دير الزور".

سنة ١٩١٩ تولى إدارة مدرسة "السلمية الزراعية" وفي سنة ١٩٢٤ عين مفتشاً لأملاك الدولة وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٦ عندما تعاقدت معه الحكومة اليمنية في صنعاء ليصبح مستشاراً زراعياً هناك لمدة سنتين، غادر بعدها إلى العراق ليعمل فيه خبيراً زراعياً ومحاضراً في دار المعلمين. ورغم مغادرته لليمن إلا أنه ظل على اتصال مع اليمن ومختصي الزراعة هناك للاطمئنان على أبحاثه وتجاربه الزراعية وحسن سير منجزاته، وقد ترك في أوراقه الكثير من الرسائل والأوراق، التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك على الرغم من تركه تلك البلاد.

بقي وصفي زكريا في العراق حتى سنة ١٩٤١ خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني، ولم يترك بغداد إلا عندما استدعته حكومة شرقي الأردن سنة ١٩٤٢ ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان، حيث انكب على التنظيم الإداري لتلك الوزارة، والتنظيم الذي وضعه وصفي زكريا ظل معمولاً به طوال عقدين من الزمن.

في سنة ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة، فبقي في وظيفته حتى سنة ١٩٥٠ حيث أحيل على التقاعد لبلوغه السن القانونية، وقد اختارته الحكومة السورية في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب.

❖ ❖ ❖

مر وصفي زكريا في حياته بفترات قاسية وعصيبة. فقد عاش في ظل الاحتلال العثماني، ثم الفرنسي، كما عاش فترات المخاض الصعبة للاستقلال السوري، فكان بذلك مجيداً للغة العربية، والتركية، والفرنسية، واللاتينية القديمة، الأمر الذي جعل مصادر البحث عنده كثيرة وآفاقه العلمية واسعة. أضف إلى ذلك ولعه بالرحلات والدراسات التاريخية والجغرافية، وكثرة أسفاره، مما جعل لديه حصيلة علمية تاريخية أثرية وجغرافية واسعة جداً انعكست على مؤلفاته التاريخية المهمة التي تركها.

ففي مجال اختصاصه المهني، كمهندس زراعي، كان وصفي زكريا رائد العلوم الزراعية في الشرق العربي، فهو أول من أسس مدارس زراعية في كل من سورية ولبنان وفلسطين والعراق واليمن.

وهو أول من وضع مناهج وبرامج التدريس للمدارس الزراعية، ومن أجل ذلك وضع العديد من الكتب التدريسية.

وهو أول من عرب المصطلحات الزراعية من اللاتينية التي يجيدها والفرنسية إلى العربية، وهذه المصطلحات لم تزل معتمدة في المناهج الدراسية وفي الكتب الزراعية، يعود إليها الباحثون بصورة دائمة.

وهو أول من وضع الكتب الزراعية العلمية المبسطة لتكون في متناول الجميع، وبذلك فقد جعل من العلوم الزراعية مادة للقراءة يستسيغها العوام.

وعلى الرغم من مرور حوالي أكثر من نصف قرن عليها، فإن كتبه الزراعية لم تزل أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي، وقد تخرج على يديه الكثيرون من المهندسين الزراعيين والمختصين أثناء توليه منصب الأستاذ المحاضر في كلية الزراعة في جامعة دمشق.

وفي ميدان الأبحاث التاريخية والأثرية والجغرافية، ترك وصفي زكريا مؤلفات مهمة كان فيها رائداً في أبحاثه واكتشافاته وشروحاته متميزاً في التدقيق بالمعلومات والتقصي الدؤوب في المراجع والوثائق عن الحقائق، متثبتاً من صحتها. وكان يعتمد في أبحاثه واستقصاءاته أيضاً على استقراء ما حصل عليه مع أصدقائه العلماء والأدباء وأهل الدراية، ثم بعد ذلك يعود إلى استقراء المعلومات المتوافرة لدى العامة، وذلك في سبيل استكمال سائر أنواع المصادر حول الموضوع الذي يدرسه أو يؤلف فيه.

◆ ◆ ◆

ترك وصفي زكريا الكثير من المؤلفات، سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي، أو في حقول أبحاثه التأريخية والأثرية والجغرافية.

ففي مجال اختصاصه المهني خلّف الآثار الآتية:

◆ "الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية" (٣ أجزاء) صدر سنة ١٩٢٥.

❖ "المفكرة الزراعية" وهي تحتوي على خلاصة الفنون والأعمال الزراعية، صدر عام ١٩٣٠

❖ "زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٥١.

❖ "حيوانات وطيور بلاد الشام" صدر سنة ١٩٨٣.

في المجال التاريخي والأثري والجغرافي ترك وصفي زكريا على أرفف المكتبات:

❖ "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" صدر سنة ١٩٣٤.

❖ "عشائر الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٤٥.

❖ "الريف السوري" (جزءان) الأول صدر سنة ١٩٥٧ والثاني سنة ١٩٥٥.

المخطوطات:

❖ مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ أحوال اليمن، وقد طبعت في كتاب صدر عام ١٩٨٩.

❖ مقالات مختلفة زراعية وتاريخية وأثرية وجغرافية كانت نشرت في الصحف والمجلات السورية والعربية.

❖ مقالات نشرت في الصحف والمجلات السورية: "المعرفة" و "الشرطة" و "مجلة غرفة زراعة حلب" وجريدتا "القبس" و "النصر" و "مجلة الحوليات الأثرية" و "المقتطف" المصرية.

❖ يضاف إلى ذلك كثير من الأبحاث المخطوطة والمقالات غير المنشورة التي وجدت في أدراج مكتبه بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة التركية والفرنسية.

❖ ❖ ❖

كان وصفي زكريا يواجه صعوبات كثيرة في تأمين السيولة المالية المطلوبة لطبع ونشر كتبه، التي جاءت في عصر قل فيه راغبو الثقافة وعشاق الكتب.

وقد أثر هذا على حياته وحياة أسرته، فعلى الرغم من أسفاره ونشاطاته المختلفة، إلا أن دخله بكامله كان موجهاً نحو الإنتاج العلمي ونشره، لذلك لم يقتن بيتاً أو سيارة، ولم يخلف لأولاده من الأملاك شيئاً إلا أنه خلف للعالم العربي آثاراً خالدة.

لم يكن وصفي زكريا سورياً في أعماله، فقد خدم دول الشرق العربي، كما خدم التاريخ العربي، والزراعة العربية، وأسهم في تآليفه المهنية والتاريخية في توحيد المصطلحات العلمية والزراعية العربية.

لم يكن وصفي زكريا يجني من جهوده شيئاً، فهو لم يحظ بأي اهتمام أو تقدير رسمي من أي من الدول العربية، سواء في حياته وحتى بعد وفاته.

ولم تجر له حفلة تأبين، على الرغم من أن ابنه غسان زكريا طلب سنة ١٩٧٩ من وزارة الثقافة أن تتولى إقامة حفلة تأبين له إلا أنها اعتذرت بحجة أن وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين الزراعيين، أو إحدى الجمعيات العلمية هي الأولى برعاية مثل هذا الحفل.

كما أنه لم يقم أي باحث عربي بتقديم دراسة عنه سوى ما أورده الأستاذ أبو الفرج العش، كمقدمة لمقال "نهر المرا" كتبه المهندس زكريا، ولم يكمله ونشر بعد وفاته بزمن في مجلة "الحوليات الأثرية" السورية.

كما قام الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش بتقديم دراسة عن حياة المهندس زكريا في كتاب أصدره يتضمن ذكريات العلامة الراحل عن وادي الفرات سنة ١٩١٦.

وقد طالب البعض بمنح وصفي زكريا وسام الاستحقاق بعد وفاته.

إن نتاج وصفي زكريا العلمي المتميز، وتقدير المختصين لمكانته العلمية والفكرية والثقافية، التي فرضها بجهوده الحثيثة هي الوسام الخالد الذي انتزعه بجدارة من الجميع.